

التوجيه العام في القرآن الكريم

د. سليمان أشت
أستاذ التفسير علوم القرآن
بطلية أصول الدين



القرآن أحسن الكلام وأفضله لأنه كلام رب العالمين ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم في فضله : « إن الرجل الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب » ^(١) وقال : « القرآن أحب الى الله من السموات والأرض ومن فيهن » ^(٢) . وروى البخاري عن أسيد بن حضير قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس ، فسكت فسكت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت وسكت الفرس ، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف وكان ابنه يحي قريباً منها فأشفق أن تصيبه فلما اجتريه رفع رأسه الى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

— اقرأ يا ابن حضير ، قال :

— فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحي وكان منها قريباً ، فرفعت رأسي الى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح ، فخرجت حتى لا أراها . قال :

— وتدرى ما ذاك ؟ قال :

— لا . قال :

— تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس اليها لا تتواري

منهم ^(٣) .

« من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » ^(٤) .

« خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ^(٥) .

وعلى رواية الدارمي لقي نافع بن الحارث عمر بن الخطاب بعسفان وكان عمر استعمله على أهل مكة ، فسلم على عمر فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادي ؟ فقال نافع : استخلفت عليهم ابن أبزى فقال عمر : ومن ابن أبزى فقال : مولى من موالينا . فقال عمر : فاستخلفت عليهم مولى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين انه لقارئ لكتاب الله ، عالم بالفرائض . فقال عمر : أما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال : « ان الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين » (٦) .

مكانة العلم والتدبر فيه :

اهتم القرآن بالعلم والتدبر اهتماما عظيما ، لأن الآيات الأولى من القرآن الكريم تبدأ بصيغة الأمر (اقرأ) ، كما وجهت النظر الى وسائل العلم كالقلم والتعليم وخاصة الى علم التشريع فقال الله تعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) (٧) . بعد القرآن العلم نورا والجهل ظلمة ويعد العالم بصيرا والجاهل أعمى بقوله : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب) (٨) . وبقوله : (قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور) (٩) . وبقوله : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (١٠) .

فالله - سبحانه وتعالى - يقارن بهذه الآيات وأمثالها العالم والجاهل ويقول إنما يتذكر عظمة الله وقدرته العلماء ويأمر عباده أن يتعلموا ما لا يعلمون بقوله : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) (١١) .

ليس في القرآن أية آية تناقض العقل السليم والعلم الوضعي الحقيقي . وكثير من إشاراتنا الى خلق الكون والأرض والبشر وقوانين الطبع قد توافق العلم الحديث . فنريد هنا ايراد بعض الأمثلة من الآيات الكونية التي تطابق العلم الوضعي الحديث لكي نفهم اعجاز كتاب رب العالمين :

— أشار القرآن الى هبوط الضغط الجوي بقدر الارتفاع من الأرض الى السماء بقوله : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) (١٢) .

— وأشار - أيضا - الى دور الرياح في التلقيح بين النباتات بقوله : (وَأَرْسَلْنَا
الرياحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) (١٣) . وكما
أشار القرآن الى إضافية الزمان فقال : (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا
تَعُدُّونَ) (١٤) . وقال : (تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ
أَلْفَ سَنَةٍ) (١٥) .

وقد أشار القرآن الى قوتي الجذب والدفع بين الأجرام بقوله : (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ
السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) (١٦) . وقوله : (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ
إِلَّا بِإِذْنِهِ) (١٧) .

فقد تدل هذه الآيات وأمثالها الى أن القرآن معجز بالنسبة للعلم ، كما أنه معجز
بالنسبة للأدب والأخلاق والحقوق ، فاذا بحثنا عن آياته بالتدبر وتحت ضوء العلم
الحديث : نفهم أنه موافق تماما للفطرة البشرية وليس فيه أي فكر يناقض العقل
السليم والعلم الصحيح . مع الإشارة الى أن القرآن ليس كتابا (فيزيائيا) ، أو
(كيميائيا) أو (جغرافيا) ؛ ولكنه كتاب أنزله الله ليكون مجتمعا عارفا بربه ،
عابدا له ، محترما حقوق الآخرين . انه كلام خالق الأكوان . فالله سبحانه وتعالى
يشير في كلامه الى بعض نواميس الكون ليتعظ الناس بالتفكر فيها . فهذه المبادئ لا
تناقض ما كشفه العلم الحديث . فان كانت هذه المبادئ مناقضة لقوانين الكون التي
أثبتها العلم ولا يمكن تغييرها ؛ فربما يدخل الشك في ضمير الانسان على ما قاله ؛ لأن
خالق الأكوان لا يقول شيئا مخالفا لما خلقه . فتوافق القرآن مع نتائج العلم غير المتغيرة
معجزة من المعجزات القرآنية ، فلا يوجد هذا التوافق في الكتب المقدسة التي بين
أيدينا الا في القرآن .

انني استمعت قبل سنتين في الجزائر بمناسبة الملتقى الثاني عشر للفكر الاسلامي
الى الأستاذ الدكتور موريس بوكاي (الفرنسي) ، قال الأستاذ المذكور في محاضرته
ما خلاصته :

ان الدين الذي أنزله الله من السماء لا يعارض الحقائق الكونية التي خلقها الله .
وان التعارض بين الدين والعلم الذي شاهده أثناء درسي التوراة ، أبعدني عن
التوراة . فله الحمد شاهدت التوافق بين العلم والدين حينما بدأت دراسة القرآن .

فقد بينت في القرآن الحقائق الكونية التي لا يمكن لأى انسان عاش في وقت نزول القرآن أن يقولها بنفسه . وأنا أعتقد أنه يلزم الانسان تعلم العلم الحديث ليفهم بعض آيات القرآن فهمها صحيحا . فقد أخبر القرآن بالحقائق الكونية التي كشفت بعد أربعة عشر قرنا .

ولا نجد في القرآن الأخطاء التي نجدها في التوراة حول خلق الكون . فهذه الحقيقة تنقض دعوى بعض الغربيين بأن محمدا قد أخذ ما قاله في القرآن من التوراة . ولو فرضنا أن محمدا أخذ من التوراة - كما ادعوا - يلزم أن يأخذ ما سمعه من الخطأ والصواب ، ولا توجد هذه الأخطاء في القرآن ، فكيف ميز الرجل الأمي الذي عاش بين وسط أمي قبل أربعة عشر قرنا الصواب التاريخي من خطئه؟! . وأشار القرآن الى النشوء المشهود في السموات والأرض ، والى وجود كثير من العوامل المشابهة لعالمنا هذا ، والعلماء المعاصرون يقبلون احتمال وجود العوالم والكائنات الحية الشبيهة بنا خارج نطاق المنظومة الشمسية . فالسموات والأرض وما فيها ، والنجوم والسدم والمجرات ، واختلاف الليل والنهار ، وتكور الليل والنهار على الأرض كتكور العمامة على الرأس ؛ كل هؤلاء مما أفاده القرآن قبل العلم . فمن قرأ هذه الآيات ممن عنده العلم الحديث يعترف بأنه لا يمكن لرجل عاش في قرن نزول القرآن أن يقول بهذه الحقائق العلمية من قبل نفسه . وأنا بينت هذه الحقيقة التي ألقيتها في أكاديمية الطب بباريس ، وقلت هناك : ان التاريخ يدل على عدم تدخل يد الانسان فيما قاله القرآن .

فأريد هنا مقايضة قصة الطوفان بين التوراة والقرآن كمثال . وقد أشارت التوراة لحدث الطوفان الى وقت ، يثبت التاريخ أن هناك لم تكن أي كارثة من الكوارث في الوقت الذي أشارت التوراة اليه ؛ وأما القرآن فهو يقص الطوفان كارثة أنزلها الله على قوم كفروا به ، ولكنه لا يحدد الزمان فلا يبقى مجال لنقده . فهكذا يقص القرآن القصص الموجودة في التوراة بطرح أخطائها .

وقد كانت التوراة المصدر الوحيد للتاريخ في عهد محمد صلى الله عليه وسلم ، وما كانت هناك البحوث الأركولوجية . فان أخذ محمد هذه القصص من التوراة أخذها بأخطائها كما هي ، فلا يمكن لرجل أمي - مهما كان رائعا في الذكاء - أن يميز

الصواب عن الخطأ . فیدل هذا على أن القرآن ليس قول محمد ، وإنما هو قول الله أنزله على عبد من عباده .

وتلك الزيادات والاطراحات في التوراة والانجيل قد تسببت في كون هذين الكتابين الإلهيين في الأصل مناقضين للعلم ، ومعارضين للعقل . وأما القرآن فليس فيه أي شيء مضاد للعلم والعقل ، فقلوه موافق للعلم الوضعي المثبت غير المتغير . وقد سببت هذه الحقيقة رغبة عن الدين وضعفا في الاعتقاد في البلاد الغربية ، بينما كانت الرغبة في الدين في البلاد الإسلامية تزداد يوما بعد يوم ، والاسلام يزداد قوة وانتشارا . وقد بدأت تنكشف الحقائق القرآنية التي استمرت مجهولة طوال القرون ، بتقدم العلم في القرن العشرين . فادعوكم الى التدبر العميق لقول الله سبحانه : (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تفكرون) (١٨) .

كنت في غرة هذا العام في مدينة (بوخم) بألمانيا الغربية ، وكنا نصاحب اثنين من أعضاء هيئة التدريس بجامعة بوخم ، فدار الكلام حول الدين وبينت فساد اعتقادهم ؛ فقال واحد منهما :

— يقول الرهبان عندنا : ان الاعتقاد لا يناقش فيه ولا يوضح بالعقل ؛ بل يؤمن به دون تفكير . فقلت لهما :

— بالطبع اذا حسبتم أن الله متشكل من ثلاثة أقانيم ، واعتقدتم أن هؤلاء الثلاثة اله واحد ، فلا يقبل العقل هذا الاعتقاد . فمن تفكر في هذا يحار ، وأخيرا ينكره . فمنع الرهبان التفكير في الاعتقاد ؛ كي لا يخرب دينهم ، فقولكم هذا صحيح بالنسبة للنصرانية ؛ وأما بالنسبة للاسلام فليس صحيحا ، لأن الاسلام يمكن ايضاحه بالعقل من اعتقاده الى عباداته فلا يوجد في الاسلام شيء مضاد للعقل والعلم . فلمن هذا الكتاب الذي بين أيديكم ؟ . قال :

— نعم ليس هذا قول عيسى عليه السلام كما هو هو ، فلا يدعي هذا أحد منا . قلت :

— ليس هذا قول عيسى عليه السلام ولكنه عبارة عن الحكايات التي نقلها غيره عن حياة عيسى عليه السلام ومشكوك في تحرير هذه الكتب من قبل المؤلفين الذين

نسبت اليهم ، لأن الحواريين كانوا أميين مشغولين باصطياد السمك في شاطئ ببحيرة
طبرية ، فكيف يكتب هؤلاء الأميون هذه الكتب المنظمة المبوبة؟. قال :
— أهكذا ؟ . قلت :

— بالتأكيد . هاتوا بأقوال عيسى عليه السلام التي تلقاها وحيا من الله فأومن
بها . ولكنني آتي بكلام خرج من فم نبينا محمد عليه السلام ، وكتب حينما أوحى
اليه ، وحفظ عن التغير ، أو تطرق شيء أجنبي اليه . وهذا القرآن بين أيدينا جاء
الينا عبر التاريخ ، كما أوحى الى النبي المختار ، بدون تغيير ولا تحريف . وأنا شاهدت
في طشقند نسخة من مصاحف عثمان - رضي الله عنه - التي استشهد حين قراءتها .
فقال الصديق الآخر الذي كان يستمع الينا منذ بداية الحوار :

— دينكم دين قرن الذرة النووية (آتوم) . وأما نصرانيتنا فلا تصلح أن تكون
دينا ، لأنه ليس لها حكم . قلت :
— فلماذا لا تؤمنون ؟ آمنوا . قال :

— سأؤمن ؛ ولكنني أريد أولا التزوج ببنت تركية ، وسأعلن ايماني عندما أتزوج
ببنت تركية .

خلق الله الكون ليعلم ذاته ويعبد لوجهه ، والعلم بالله انما يكون بكسب العلم ،
ويوجد استعداد كسب العلم في الانسان فقط على ظهر هذا الكوكب . فاذاً ، الغاية
من خلق الكون والانسان هي معرفة الله . والأمانة التي أشفقت السموات والأرض
والجبال أن يحملنها وحملها الانسان هي العقل وميزة التفكير ، فتقدم آدم بعقله ،
وسجد الملائكة امامه احتراماً لعلمه . ما أعلى قدر العلم حيث قال النبي صلى الله عليه
وسلم في شأنه : « ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » ^(١٩))
وقال : « من أشرط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر
الزنا » ^(٢٠) .

وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم ضالة المؤمن وأوصاه أن يأخذه أينما وجدته .
والقرآن يلفت النظر الى الكون والحوادث الكائنة في العالم ، ويعد كل حاجة أو
موجود في العالم آية من آيات الله التي تدل على وجود الخالق العليم القدير وتشير الى
حكيمته وعظمته ، فعلى الانسان أن ينظر اليها بنظر العبرة لا بنظر العمى والغفلة ،

ويدقق فيها ويبحث عن أسباب خلقها ، ويكشف قوانين الكون المسماة في القرآن بسنة الله ، ليعرف وجود الخالق يقينا ويعبده خاشعا متذللا . فالأرض الحية بعد موتها والشمس والقمر والدواب والأنعام والطيور في السماء وفوق الأشجار كلها من آيات الله تعالى .

يقول الله سبحانه وتعالى (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ) . (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ) (٢١) .

(أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) (٢٢) . (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) (٢٣) .
ويدم الله تعالى الشخص الذي يمر على هذه الايات الناطقة بلسان الحال بعظمة الله وقدرته ووحدانيته من غير تبصر كالأعمى فيقول : (وكأين من آية في السموات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) (٢٤) .

فسار المسلمون المتقدمون في هذا الاتجاه الذي وجههم القرآن اليه ووصلوا الى أعلى درجة في العلوم الدينية والوضعية ، فأحدثوا الأصول والطريقة في العلوم الاجتماعية كالحقوق والتاريخ ، ووضعوا طرق الاختبار والتجربة في العلوم الوضعية . ولكنهم بعد قليل خاضوا في نظريات الفلسفة اليونانية وتعمقوا في غوامض الحواشي والهوامش ، فاعتزلوا عن الاتجاه القرآني ، وتخلفوا في العلوم الوضعية حينما بدأ الغرب يتقدم في طريق التجربة والاختبار على الأسس التي وضع المسلمون حجرها . فلو لم يترك المسلمون الاتجاه القرآني ، ولم يخوضوا في نظريات الفلسفة اليونانية لوصلوا الى أعلى مرتبة في الفن والحضارة من الوضع الذي هم فيه اليوم ، لأن الفكرة اليونانية كانت تعتمد على النظريات ولا تعتمد على التجارب ، فلذلك مال اليوناني الى أن يدعي بالنظريات الكلية حول خلق العالم ، ولكن

المسلمين اعتمدوا على التجربة العملية ، لا التجريد النظري فقط ، وخاصة كان العرب الذين انتشروهم الاسلام مائلين الى المحسوس الملموس لا الفكر المجرد كما قال الدكتور أحمد أمين في (فجر الاسلام) .

فالقرآن الذي نزل في هذا الوسط الفكري دعا الناس الى بحث الكون والتدقيق فيه عن قريب . فلو استمر المسلمون في التقدم بهذا الاتجاه لكشفوا القوانين الكثيرة كما كشف آباؤهم في القرون الاسلامية الأولى .

يقول الشاعر الباكستاني المفكر محمد اقبال :

« على الانسان البحث عن الجماعة التي أراد النبي صلى الله عليه وسلم تأسيسها ، والبحث عن التراث المتفجر من خلال رسالته التي أتى بها لكي يفهم قيمة عمله الديني . والأنبياء القدماء أتوا ببعض المبادئ ، غير أن هذه المبادئ كانت عبارة عن تنظيم الاعتقادات المبهمة ، لا تعطي فكرة صريحة حول عالم الطبيعة . وإذا نظرنا إلى القضية من هذه الزاوية نجد النبي صلى الله عليه وسلم بين عالمي القديم والحديث ، فنجده باعتبار مصدر وحيه في العالم القديم ، وباعتبار روح وحيه في العالم الحديث . وهكذا تجد الحياة في وحيه مصادرها الكاملة العلمية .

وها أنا سأثبت لك أن العقل الاستقرائي قد تولد بتولد الاسلام ، وقد كملت الرسالة بالاسلام وانقطعت . فعلى الانسان الرجوع الى مصادر نفسه كي يتقدم . فرفع القرآن الرهبانية انطلاقا من هذه الفكرة ، وعد الأنفس والآفاق مصدرين أساسيين للعلم . قال الله تعالى : (سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) . فالله تعالى أرى آياته للخلق في النفس وفي الآفاق أي : في باطن الانسان وظاهر الكون . فيلزم على البشر البحث عن الطبيعة بالتجربة والمشاهدة . فعلى هذه الآية : لعلم البشر طريقان وهما : الاختبار النفسي ، والمشاهدة والتجربة الخارجية . فاذا فتحت هذه المنابع كلها وأسليت انفجر روح الاسلام تماما . يرى القرآن آيات الحق المطلق وعلائم وجوده وقدرته في الشمس والقمر وامتداد الظل واختلاف الليل والنهار ، وتغير ألوان الناس وأديانهم ، وبالجمل في كافة الحوادث المحسوسة بجواس البشر . فعلى الانسان البحث عن هذه الآيات بحثا دقيقا لا

الاعراض عنها كالشخص الأعمى ، لأن الله عز وجل يقول (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا) (٢٥) .

يبدأ العلم بالمحسوس المادي لأن الذهن يستطيع الذهاب الى ما وراء المحسوس اذا ساد على المحسوس ، فأهم ميزة للاسلام توجيه النظر الى المحسوس الملموس قبل المجرد ، وهدفه الوصول الى اللانهائي المجرد بواسطة النهائي المحسوس على عكس فكرة اليونان لأن هدفها النهائي لا اللانهائي . والغاية من علم النفس الديني والتصوف الاسلامي الوصول الى اللانهائي أي : الى الله تعالى .

فالطبيعة محدودة ديناميكية مليئة بالقوة والنشاط ، صالحة للتزايد كما يقول القرآن : (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ) (٢٦) . لم يشعر المسلمون أولا ان روح القرآن مخالف للأفكار القديمة الفلسفية ، فأحبوا الفلسفة اليونانية بكل حب ، وأولوا القرآن بالآراء المضادة له ، فلما لم يستطيعوا التوفيق بين القرآن والفلسفة اليونانية التزموا الرجوع الى طريقة القرآن ، فبدأ يظهر روح الاسلام فيهم شيئا فشيئا . فشوهت الثورة العقلية على التفكير اليوناني في المجالات الفكرية ، وقد ترى هذه الثورة خاصة في كلام الأشعرية بارزة ، ولكننا نجد أبرزها في الفكر النقدي على الفلسفة . فقاد عدم الرضا عن الفلسفة العلماء الى البحث عن أوثق طريقة للعلم . أعتقد أن (النظام) قبل مبدأ (الشك أساس العلم) أول مرة ، والغزالي أظهر تقدما كثيرا بهذا الاتجاه في (الاحياء) ، وفتح سبيلا الى طريقة ديكارت (Descartes) ، وأخذ ابن تيمية الاستقراء طريقا وحيدا للعلم في كتابه المسمى بـ (رد المنطق) . فهكذا ظهرت طريقة المشاهدة والاختبار تنكشف في العالم الاسلامي .

وليست التجربة من مخترعات الأوربيين . ان روجر بيكون - المفكر الانجليزي - قد درس وتعلم في الجامعات الاسلامية بالأندلس . ولا شك أن الفصل الخامس من كتاب أوبوس ماجوس (Opus Majus) له ، نسخة من (كتاب المناظر » لابن الهيثم . والكتاب المذكور لروجر بيكون يدل على تأثير ابن حزم عليه أيضا . وقد يعترف بريفولد (Briffault) بهذه الحقيقة في كتابه المسمى بـ (Making of Humanity عمل الانسانية) بقوله :

ان روجر سيكون رسول من الرسل الذين جاءوا بالعلوم الاسلامية وطرقها الى أوروبا النصرانية (ص ٢٠٢) . فالعلم مدين كثيرا لتراث العرب حتى يدين وجوده له أيضا . لأن علم الفلك وعلم الحساب كانا مستوردين من الخارج الى اليونان فظمهما اليونان وعمموهما ، ولكن البحث والاختبار والملاحظات الدقيقة التي تتطلب صبرا كثيرا كانت غريبة عن التفكير اليوناني . فالبحث في العلوم الوضعية التي ظهرت بعد كشف أن طريقة المشاهدة والتجربة كانت غريبة لليونانيين . والذين أتوا بهذا الروح وبهذه الطرق العلمية الى أوروبا هم العرب (أي : المسلمون الذين كتبوا باللغة العربية) ص ١٩٠ (٢٧) .

كانت اللغة العربية لغة مشتركة بين المسلمين ، وللمسلمين خدمة كبيرة في كل مجالات العلم ، ولكنهم أحرزوا درجة شامخة في الطب . فالخلفاء العباسيون حثوا العلماء من المسلمين أو غيرهم الى ترجمة الآثار العلمية وتعميق نظرهم في العلم وخاصة في الطب . فبدأ أولا حركة الترجمة وبعدها التأليف . فكتب طيب قصر المتوكل « علي ابن ربان الطبري » (جنة المحكمة) ولخص فيه علم الطب . واشتهر تأليف حنين ابن اسحق المسمى بـ « المدخل في الطب » في أوروبا باسم :
Isagege Ioanntii artem barvam ganeni وكتب حنين كتابا في مداواة الأمراض العينية .

وكان محمد بن زكريا الرازي فضل كبير في خدمة علم الطب والكيمياء ، وكانت مشاهداته وتجاربه في غاية الكمال . وكتب هذا الطبيب والكيميائي رسائل هامة في الطب والصيدلة وترجمت الى اللغة اللاتينية وأصبح كتابه الحاوي بأوروبا في القرون الوسطى أم الكتب في مجال الطب باسم :
Continens des Rhazes واشتهر أبو القاسم الزهراوي في قرطبة جراحا حاذقا وأثرت ترجمة كتابه اللاتينية في

Guy de Chauliat , Salicetti , Lanfranchi

وكان كتاب قانون الطب لعلي بن سينا معروفا في الشرق والغرب ومرجعا وحيدا في الطب مدى العصور . وقد طبع هذا الكتاب في أوروبا ستة وثلاثين طبعة في القرنين الخامس والسادس عشر فقط . فأحرز الطب الاسلامي نتائج هامة في الأدوية

ومداواة العين (Oftamology) وكانت تجرى العمليات الجراحية لكشف السد العيني .

ويقول العالم الكبير اسماعيل آنقروى الذي شرح المثنوى في سبع مجلدات ، وله كتب غير شرحه ، يقول في مقدمة تفسيره لسورة الفاتحة : ان غطاء قد سد عينيه فلم يستطع أن يقرأ شيئاً بعد ؛ فحزن جدا ودعا الله تعالى ليكشف عينيه ، ونذر : ان كشف الله عينيه فلن يشغل بشيء غير القرآن والحديث . فجاء سياح يوما ما وأخذ هذا الغطاء الساد عينيه بآلة دقيقة من حديد ففتحت عيناه . فكتب بعد أن استطاع القراءة والكتابة تفسيرا لسورة الفاتحة باللغة العثمانية وسماه فتوحات عينية .

فهذا الحديث يدل على أن السد العيني كان يؤخذ بعملية جراحية . وحررت جدا حينما قرأت قول هذا العالم الذي عاش قبل عدة قرون . ففكرت في نفسي : كيف أجريت العمليات في ذلك الحين ؟ فصادفت رجلا في مكتبة بينما كنت مفكرا في هذا الموضوع ، فقال الرجل - وهو من مدينة ملاطية الكائنة في وسط الأناضول - في مدينته رجال يأخذون السد العيني بطريقة قديمة ، فتوارثوا هذه الصنعة عن آبائهم منذ قديم . فأيقنت أن هذه العملية قد أجريت بين المسلمين منذ قديم ، ولم كانت بطريقة قديمة بسيطة غير أمينة مائة بالمائة .

وكشف ابن النفيس الدمشقي أن الجدران القلبية تمنع وصول الدم من حجيرة القلب الى حجيرته الأخرى ، فأدرك وأعلن أن الدم يخرج من الحجيرة اليمنى للقلب (أي : من البطين الأيمن) ويصل الى حجيرات الرئة بالشريان ، ويمتزج فيها بالهواء ، ويعود الى الحجيرة اليسرى (أي الى الأذين الأيسر) بالوريد . فكشف هذا الطبيب دورة الدم الرئوية قبل ثلاثمائة سنة من قبل وليم هارفي (William Harvey) .

وكان يسود التوقف في ساحة الرياضيات منذ ألف سنة ، فأنقذ البيروني (١٢٠١ - ١٢٧٤) علم الحساب والهندسة من هذا التوقف بتحليله العقلي نظرية أكليد ، ومهد لفكرة فوق المكان الحديثة (Hiperespace) ، ونظر البيروني الى نظرية فونقسيون (Function) بنظرة علمية ، وفهم عدم كفاية فكرة المكان السكوني (الاستاتي) . وفكرة فونقسيون تجيء بفكرة الزمان الحديث فيحول

الثابت الى المتحول . فالكون في هذه الفكرة شىء متجدد مستمر ، ليس شيئاً كان في الماضي وانتهى . فهذا التفسير موافق لآية : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (٢٨) . (وهو الذي يَبْدُؤُ الخلق ثم يُعيدُه) (٢٩))

ونقل الخوارزمي مفهوم العدد اليوناني من الكمية المجردة الى النسبة المجردة ، وبدأ الانتقال من الحساب الى علم الجبر . وخطا البيروني خطوة عظيمة في مفهوم العدد من الكائن الماضي نحو الكائن المستمر الذي وصفه سبنجلر (Spengler) بالعدد الكرونولوجي (Chronology) ان التدقيقات الحديثة تخرج الزمان عن وصفه التاريخي وتجعله مظهراً من مظاهر المكان (٣٠) .

وأسس أول مرصد في الدنيا بسمرقند من قبل الأمير العالم الفلكي ألغ بك في سنة ٢٩ - ١٤٣٤ من الميلاد . وحسب ألغ بك طول السنة الشمسية قريباً من الحساب الحديث جداً . وعلى حساب ألغ بك فان طول السنة الشمسية هو : ٣٦٥ يوماً و ٦ ساعات و ١٠ دقائق و ٤ ثوان . وعلى الحساب الحديث طولها : ٣٦٥ يوماً ، و ٦ ساعات و ٩ دقائق و ٦ ثوان . والفرق بين كلا الحسابين ضئيل جداً كأن لم يكن .

ورسم (بيري رئيس) الملاح العثماني خارطة العالم قبل أربعمئة سنة ، ووضع القطاعات والبحار والمحيطات والأنهار باتقان ، كما رسمت في يومنا هذا . وأشار الى أقوام البشر الذين يعيشون في المناطق المختلفة بألوانهم ولغاتهم وحضاراتهم . فالعلماء الغربيون يعدون هذه الخارطة معجزة بالنسبة للقرن الذي عاش فيه برى رئيس . ونجد فكرة النشوء تتشكل شيئاً فشيئاً مع تطور التفكير الرياضي ، فأشار الجاحظ أول مرة الى التغير الذي أحدثته الهجرة في حياة الطيور . وجاء ابن مسكويه (المتوفي سنة ٤٣١ هـ) بالوضوح الى فكرة النشوء ، وأوضحه في كتابه المسمى بـ « الفوز الأصغر » .

ونشاهد في القرآن مبادئ علم التاريخ . يقول الله سبحانه وتعالى : (وتلك الأيام نداولها بين الناس) (٣١) . (لكل أمة أجل) (٣٢) . تأتي هاتان الآيتان بمبدأ تاريخي يقبل أقوام الناس كأفراد حية . ولا شك أن ابن خلدون استنبط أساس مقدمته من الهام القرآن ، يقول ابن خلدون في كلامه المفصل الذي خصه لشخصية

العرب : ان القرآن يعطينا النقد الذهني في التاريخ ، لأن التأريخ يكون علماً إذا نقلت الحوادث صحيحة ، فصحة الحوادث المنقولة مرتبطة بناقليها . اذ المبدأ الأول للتاريخ معرفة شخصية ناقل الواقع ليتمكن الحكم بصحة الواقع الذي رواه أو عدم صحته فيقول القرآن (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) (٣٣) . فطبق حكم هذه الآية أولاً على رواية أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنتجت من بعد هذا قواعد النقد التاريخية ، فنشأ بين المسلمين علماء التاريخ مثل : ابن اسحاق وابن هشام والواقدي والطبري والمسعودي وما أشبههم ، كما ظهر بينهم علماء الحديث مثل : البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه والنسائي وغيرهم .

كما نرى القرآن يوجه الناس تجاه علوم الآخرة ، التي هي وسيلة لتصفية القلب ومكارم الأخلاق ، مع أنه يوجههم تجاه العلوم الوضعية التي هي وسيلة لعيش الأقوام حرة بين الأمم الأخرى لحفظ عرضهم وشرفهم من الأعداء . ويعد النبي صلى الله عليه وسلم خير الناس من لا يترك آخرته لدنياه ولا يهمل دنياه لآخرته ويسعى لها معاً . وقد ساق القرآن المؤمنين الى الأمام ، كما حثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو الارتقاء والتقدم في ساحة الروحية المعنوية وفي ساحة المادية الدنيوية . فعلى الانسان تعمير واعداد القوى المادية وتركيز نفسه وتصحيح أخلاقه لكي يسعد في الدارين .

د . سليمان آتش

هوامش البحث

- (١) رواه الترمذي في فضائل القرآن ، الباب : ١٨ ، ورواه الدارمي في فضائل القرآن الباب : ١ .
- (٢) رواه الدارمي في فضائل القرآن ، الباب : ٦ .
- (٣) البخاري ، فضائل القرآن ، باب : نزول السكينة .
- (٤) الترمذي ، فضائل ، ب ١٦ ، الدارمي ، فضائل ، ب ١ .
- (٥) البخاري في فضائل القرآن ، باب : خيركم من تعلم القرآن ، الترمذي فضائل ، ب ١٥ ، الدارمي فضائل ب ٢ .
- (٦) الدارمي ، فضائل القرآن ، ٩ .
- (٧) سورة العلق ، الآية : ١ - ٥ .
- (٨) سورة الزمر ، الآية : ٩ .
- (٩) سورة فاطر ، الآية : ٢٠ .
- (١٠) سورة فاطر ، الآية : ٢٨ .
- (١١) سورة النحل ، الآية : ٤٢ .
- (١٢) سورة الأنعام ، آية ١٣٥ .
- (١٣) سورة الحجر ، آية ٣٣ .
- (١٤) سورة الحج ، آية ٤٧ .
- (١٥) سورة المعارج ، آية ٤ .
- (١٦) سورة الرعد ، آية ٣ .
- (١٧) سورة الحج ، آية ٦٥ .
- (١٨) سورة البقرة ، آية ٢١٩ .
- (١٩) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وأبو داود والدارمي وابن ماجه والترمذي . وهو صالح .
- (٢٠) رواه مسلم في كتاب العلم ، باب رفع العلم .
- (٢١) سورة ياسين ، الآيات من ٣٣ الى ٤٢ .
- (٢٢) سورة الملك ، الآية ١٩ .
- (٢٣) سورة الغاشية ، آية : ١٧ - ٢٠ .
- (٢٤) سورة يوسف ، الآية : ١٠٥ .
- (٢٥) سورة الاسراء ، الآية : ٧٢ .
- (٢٦) سورة فاطر ، الآية : ١ .
- (٢٧) **Muhammed Ikoal, Recenstruction of Religious Thought in Islam** (٢٧)
P. 124-142 , Lahore , 1958 .
- (٢٨) سورة ياسين ، آية : ٨٣ .

- (٢٩) سورة الروم ، آية : ٣٧ .
(٣٠) انظر الى المصدر السابق لمحمد اقبال .
(٣١) سورة آل عمران ، آية : ١٤٠ .
(٣٢) سورة يونس ، آية : ٤٩ .
(٣٣) سورة الحجرات ، آية ٦ .